التقعيد للبنية اللغوية العربية:
السياق التاريخي والاجتماعي والمعرفي

سعيد العيماري

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الدار البيضاء سطات
الفرع الإقليمي بالجديدة
said.elaimari@gmail.com

تحديدات مفهومية

اللغة العربية

تُعَرَّف اللغة العربية بأنها "الكلمات التي يعبر بها العرب عن أغراضهم. وقد وصلت إلينا من طريق النقل. وحفظها لنا القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وما رواه الثقات من منثور العرب ومنظومهم".

علوم العربية

أما علوم العربية فهي العلوم التي ظهرت بعد اختلاط العرب بالعجم، ووُضعت لعصمة اللسان والقلم من الزلل، وتم التأصيل لها لتُصَنَّف إلى ثلاثة عشر علما:

الصرف، الإعراب (ويجمعها اسم النحو)، والرسم (وهو العلم بأصول كتابة الكلمات)، والمعاني والبيان والبديع، والعروض والقوافي، وقرض الشعر، والإنشاء، والخطابة، وتاريخ الأدب، ومتن اللغة.

علاقة الظواهر اللغوية بعلوم العربية

تمثل الظواهر اللغوية مظهرا من مظاهر علوم العربية المختلفة، يتباين تصنيفها داخل هذه العلوم على حسب المستوى الدراسي لمتعلم اللغة العربية، ويتمايز التعمق في تفاصيلها بحسب التخصص في المراحل الثانوية والجامعية.

في مرحلة الابتدائي يولى الاهتمام بشكل خاص إلى علوم بعينها، أهمها: الصرف والإعراب (النحو) والرسم؛ ويقابلها في الاستعمال الاصطلاحي المعتمد في المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي:

الصرف والتحويل – التراكيب - الإملاء

ما النحو/ التراكيب؟ ما الصرف؟ ما الإملاء؟

النحو/ التراكيب

النحو "علم بقواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب، وموصلة إلى معرفة أحكام أجزاء هذا الكلام الذي تركب منها".
ويقصد بالتراكيب: ائتلاف الكلمات وضم بعضها إلى بعض لتَكون كلاما مفيدا، وقد يتركب من اسمين أو من فعل واسم، وقدي يطول فيتصل لتتم به الفائدة

الصرف

هو العلم الذي تعرف به أحوال بنية اللفظة المفردة.
إنه علم يعنى ببنية اللفظ المستقل وهيأته على خلاف علم النحو الذي يهتم باللفظ في سياق الجملة أو التراكيب المستعمل فيها.

الإملاء

الإملاء علم يهتم بوضع القواعد الضابط لكتابة الكلمة العربية، وذلك من خلال دراسة الأحوال التي يمكن أن تعرض لرسم الخط العربي وأثر ذلك على دلالة الكلمة وحسن تنظيمها في السطور.

لماذا نحتاج إلى النحو في الاستعمال اللغوي؟

النحو - شأنه شأن بقية علوم اللغة - لا يمكن أن ينشأ بناء على الرغبة الشخصية لفرد مهما كانت قدرته العقلية، ومهما بلغ حماسه وتوهجه وغيرته، فإن العلم - وبخاصة في مجال الدراسات الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي - إنما ينشأ تعبيرا عن حاجات اجتماعية في محاولة لتلبية هذه الحاجات، وأي رؤية مخالفة لذلك - فضلا عن مخالفتها التي لا مفر منها للواقع الذي كان والذي لا بد أن يكون - تضلل في فهم الحقائق وتزيف صورتها، لأن النحو علم لغوي تلده الحاجة الاجتماعية، ولا مجال لتصور نقل الحاجات الاجتماعية من بيئة إلى بيئة، وهو علم يعالج الظواهر الاجتماعية، أو بتعبير أدق تأثير بعض الظواهر الاجتماعية على اللغة، والعلاج لا يوصف إلا عند وجود المرض، ومستحيل أن تصف علاجا في العربية لمرض لا وجود له فيها.

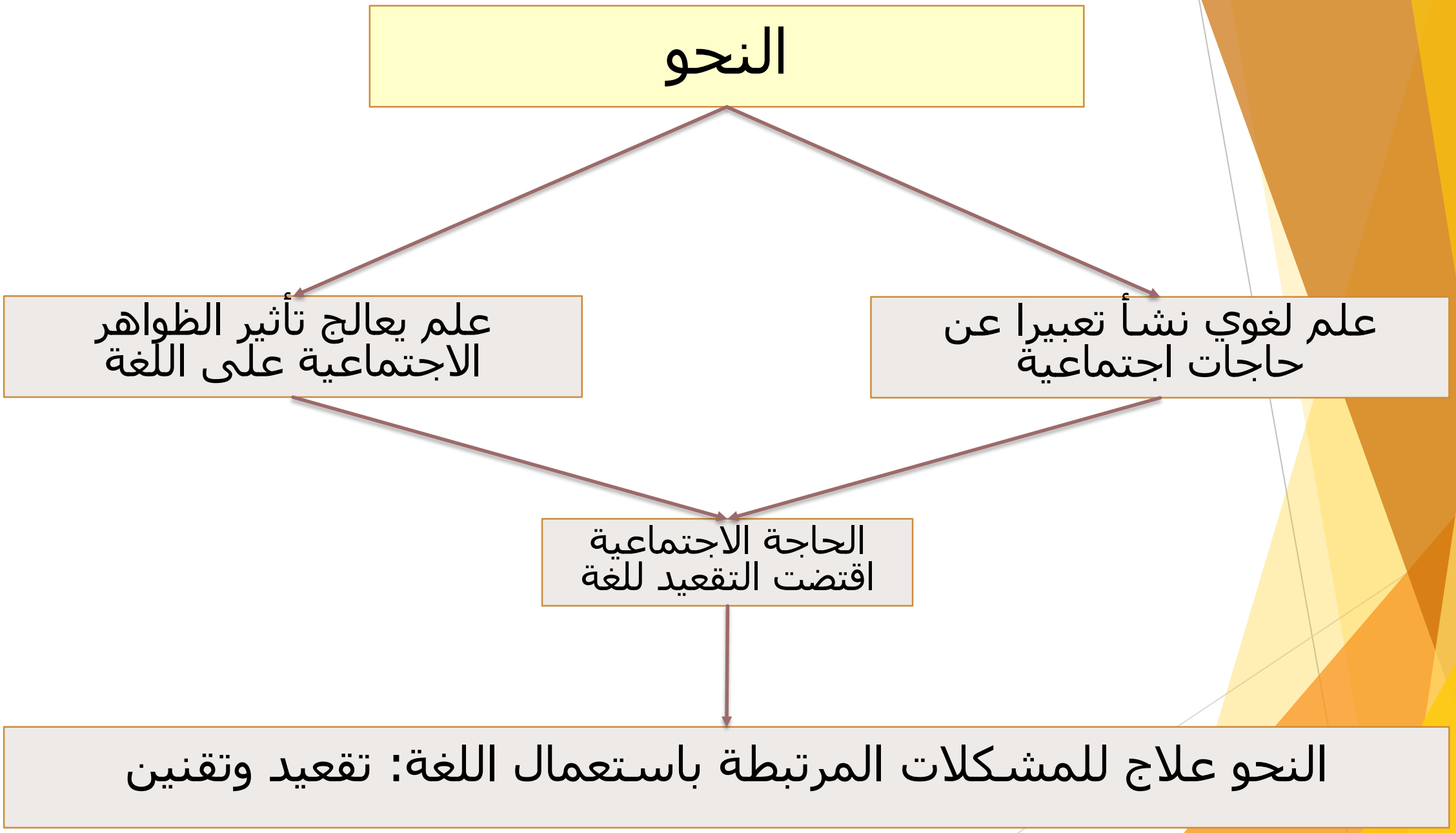
النحو
علم لغوي نشأ تعبيرا عن حاجات اجتماعية
علم يعالج تأثير الظواهر الاجتماعية على اللغة
الحاجة الاجتماعية اقتضت التقعيد للغة
النحو علاج للمشكلات المرتبطة باستعمال اللغة: تقعيد وتقنين

سياق نشأة النحو والتقعيد لبنية اللغة العربية

نحسب أن من الواجب - حتى يمكن تصور ما كان على نحو قريب مما كان - أن نبدأ بمقدمتين تتكاملان:
الأولى، أنه لا لغة بلا قواعد، إذ اللغة - بالضرورة - مجموعات تتكامل من المستويات، ومن ثم فإنها تتضمن مجموعات تتآزر من الضوابط والنظم، ولا سبيل إلى تصور لغة، من أي نوع، من غير قوانين تضبط مستوياتها، وتنظم أساليبها.
والثانية، أن الناطقين باللغة يدركون وجود قواعد لها وإن لم يقفوا على تفاصيلها، وبوسعك أن تتأمل مثلا لغة الطفل ومراحلها، فسوف تلحظ أن المحيطين به - من أفراد البيئة اللغوية - (يصححون) له ما يقع فيه من أخطاء، وإن لم يكونوا على (علم) بسبب كونها أخطاء، وهم يعلمون الطفل اللغة من خلال النماذج اللغوية الصحيحة، ويرفضون ما قد يقدمه من صيغ أو تراكيب أو جمل أو أساليب تتسم بالصحة، وإن لم يعرفوا السبب الذي يجعل بعض النماذج صحيحة وبعضها غير صحيح.
ومقتضى هذا أن في القواعد اللغوية مرحلتين:
الأولى: مرحلة (الإدراك التلقائي) لوجود قواعد، وهو إدراك نستطيع أن نصفه بأنه (تطبيقي) أكثر منه تجريدي، أي أنه يتم من خلال استيعاب النماذج اللغوية وليس بالبعد عنها، من غير تبرير ذهني مقبول أو رفض، ثم هو إدراك يمكنك أن تسمه بأنه (جزئي) وليس (كليا)، فإنه قد لا يستطيع أن يصل إلى حكم عام يشمل أحداثا لغوية متعددة، بيد أنه قادر دائما على التعامل مع الأحداث اللغوية المتعددة بالتصويب أو بالتخطئة. وهو إدراك في مقدورك أن توسع دائرته بحيث يوشك أن يكون (صفة للمتمكنين) من اللغة، وليس خصيصة لفريق من الباحثين فيها.
الثانية: مرحلة (الوعي العقلي) بالقواعد، وهي مرحلة تتميز بالرؤية التجريدية التي تحكم كل تطبيق، وهي رؤية قادرة على (الإحاطة الشاملة) دون أن تتوه في خضم الجزئيات، ولكنها في مقابل ذلك محدودة في نطاق الباحثين في اللغة، وليس صفة لكل الناطقين بها.

علاقة القواعد باللغة

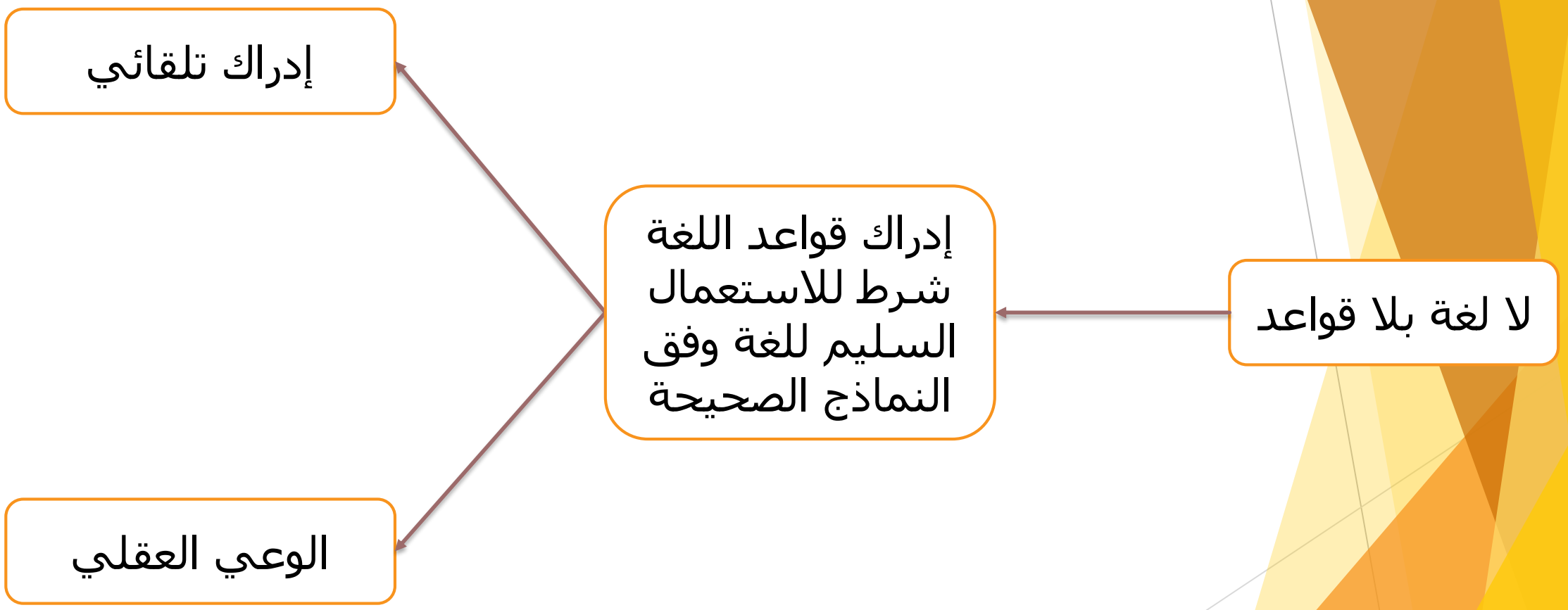

سياق نشأة النحو والتقعيد لبنية اللغة العربية

بروز مشكلات لغوية نتيجة لعاملين اثنين:

عامل اجتماعي

الاختلاط العميق العظيم الذي نشأ بين القبائل العربية وبين غير العرب

عامل ديني

نقل الأمم والشعوب بعد الفتوحات الإسلامية إلى القرآن والعربية تطلب إيجاد حل سريع يضمن وحدة المجتمع وترابطه.

سياق نشأة النحو والتقعيد لبنية اللغة العربية

عوامل أخرى:

عامل قومي

إنشاء العرب ثقافة قومية بعد أن وجدو أنفسهم بعد الفتوحات الإسلامية أمام ثقافات متنوعة وذات إنتاج علمي مخصوص؛ كالثقافة الفارسية، الهندية، اليونانية، المصرية، السريانية

عامل سياسي

الوصول إلى المناصب العليا والمكانية الرفيعة خلال فترة الحكم السياسي ما بعد الخلفاء الراشدين اقترن بالتمكن من اللغة، فما كان من الموالي (المسلمون غير العرب)إلا أن انتزعوا الراية النحوية من أيدي العرب، فكان جمهرة النحاة منهم، وقد حولوا النحو العربي من منهج علمي إلى منهج تعليمي، لجعل تعلم اللغة في المتناول

عامل معرفي

تطور العقل العربي ونمو طاقته الذهنية بالشكل الذي جعله قادرا على رصد الظواهر اللغوية وتصنيفها والتقعيد لها بمعرفة خواصها

التقعيد للبنية اللغوية

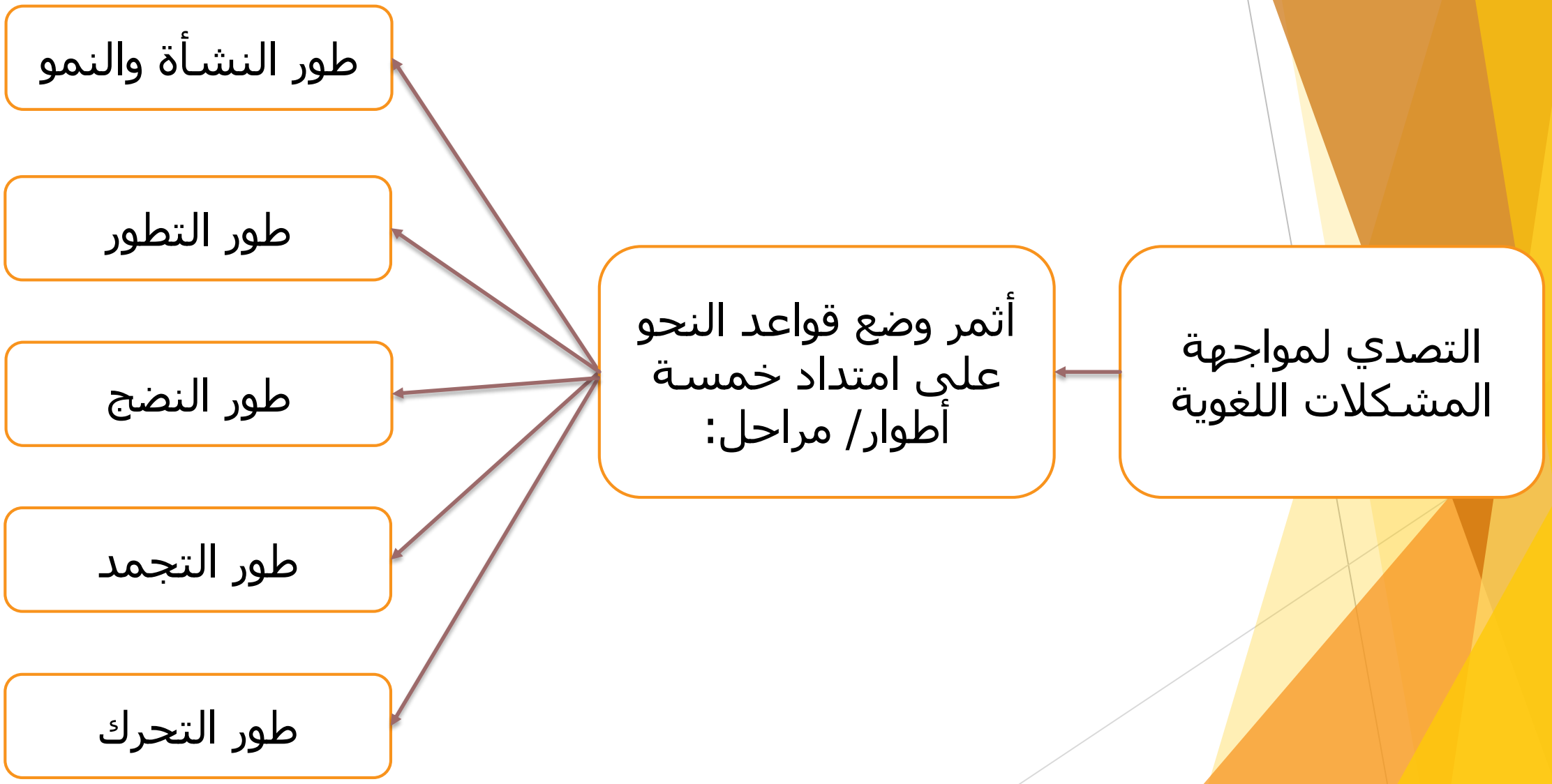

أطوار النحو العربي ومراحل تطوره

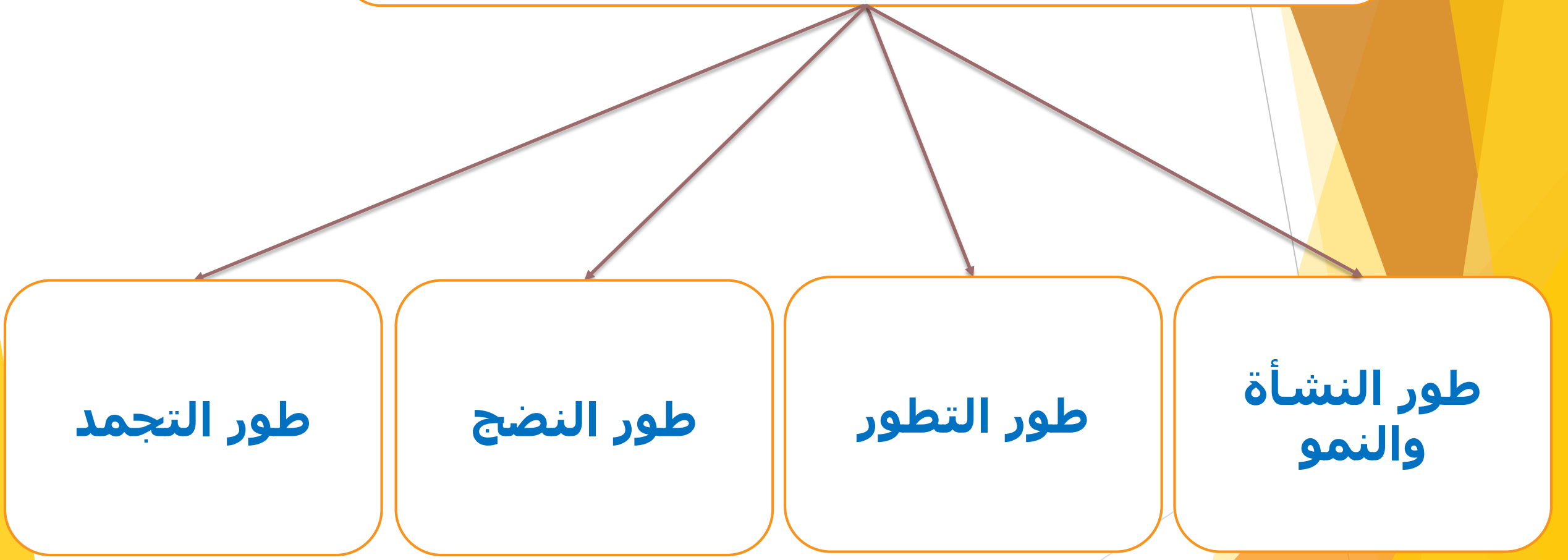

طور النشأة والنمو

استغرق نحوا من قرن ونصف، من عهد أبي الأسود الدؤلي حتى عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولعل أهمية هذه الفترة في النحو تعود إلى أنها شهدت بدء محاولات استكشاف الظواهر اللغوية عقب نقط أبي الأسود للمصحف حتى لا يخطئ فيه قارئه، كما تم فيها أيضا المحاولات الأولى لصياغة ما استكشف من الظواهر في قواعد، ثم تصوير هذه القواعد في شكل بعض المصنفات الصغيرة التي أتاحت الفرصة لمناقشة الظواهر والقواعد معا، مما فتح الباب أمام آخر أجيال هذه الفترة لوضع الأسس المنهجية التي كان لها تأثيرها في الفترة التالية، وتتلخص هذه الأسس في أمور ثلاثة:

أولا: الخلط بين المستويات اللغوية، وقياس القواعد إلى ما يسمع من كلام العرب لا إلى ما يطرد وينقاس منه.

ثانيا: استخدام التأويل لتصحيح ما يخالف قياس النحو من النصوص.

ثالثا: افتراض واقع لغوي لا يمتد عما في اللغة من ظواهر، وإنما يستند - بصورة مباشرة - إلى القواعد اللغوية المرنة المستنبطة من المستويات اللغوية المختلطة.

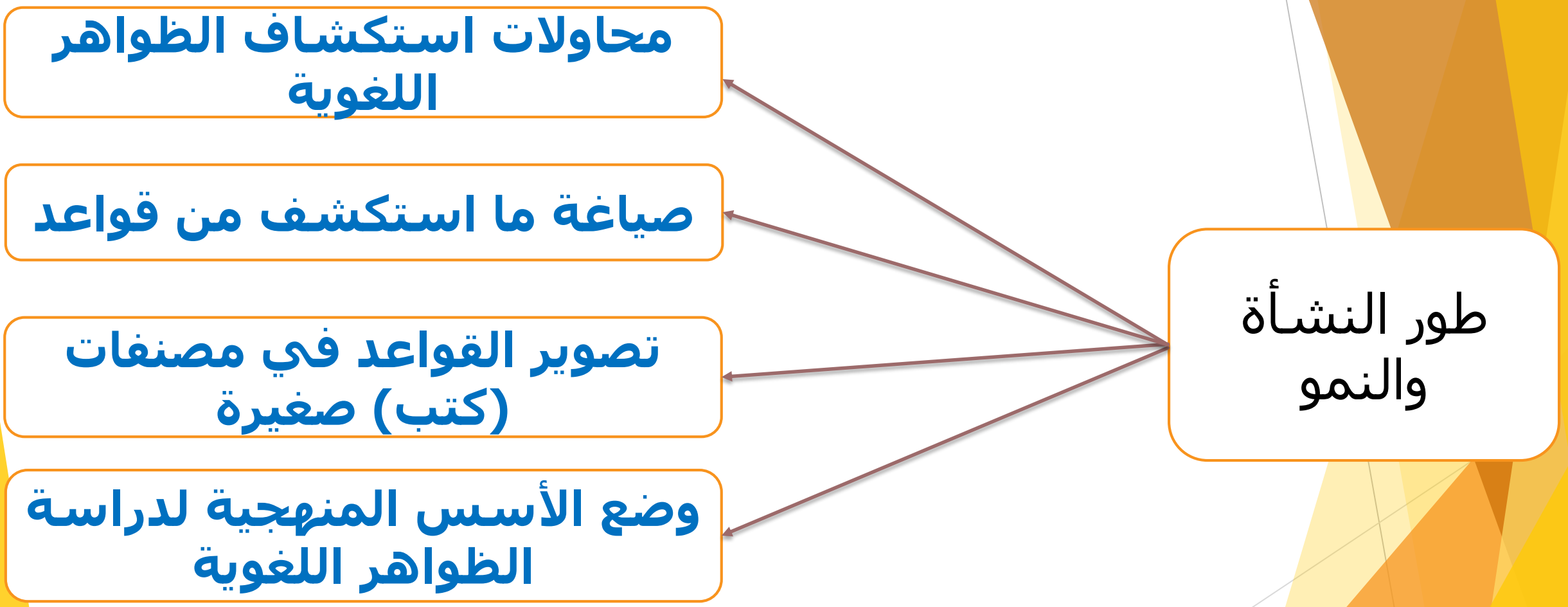
طور النشأة والنمو
محاولات استكشاف الظواهر اللغوية
صياغة ما استكشف من قواعد
تصوير القواعد في مصنفات (كتب) صغيرة
وضع الأسس المنهجية لدراسة الظواهر اللغوية

طور التطور

استمر قرابة قرن أيضا من الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى أبي بكر محمد بن سهل السراج، المتوفى سنة 316هـ، وفي هذا الطور ثم استقلال البحوث اللغوية والنحوية عن الدراسات القرآنية، واستوعب النحويون كافة ظواهر اللغة دراسة وتقنينا، وانتهوا من تحديد المصطلحات، وأتموا تصنيف أهم ما بين أيدينا من مؤلفات، وتعددت مراكز البحث اللغوي - والنحوي بخاصة - بعد أن كانت مقصورة على البصرة وحدها في المرحلة السابقة، إذ امتدت هذه البحوث إلى الكوفة ثم بغداد فمصر والشام والأندلس.

ولعل هذا الطور أخطر أطوار النحو العربي على الإطلاق، بيد أن خطورته لا تمتد عما ذكرناه من ظواهر صحبت هذه الفترة ونتجت عنها فحسب، بل تستند - فضلا عن ذلك - إلى ما تعرضت له مناهج البحث النحوي فيها من مؤثرات أعادت - في الحقيقة - تشكيلها، وعلى رأس هذه المؤثرات الترجمة عن السريانية والإغريقية، تلك الترجمة التي استطاعت أن تحفر جدولا صغيرا في مطلع هذه الفترة ولكنه ما لبث قليلا حتى أصبح بحرا زاخرا، ولعل أهم ما قدمته الترجمة إلى العربية علوم الأوائل، تلك التي يعنون بها التراث اليوناني القديم، وأعمق هذه العلوم أثرا وأوسعها تأثيرا الفلسفة والمنطق بشكل خاص، وكان من هؤلاء الذين اتصلوا بهما النحاة الذين حاولوا في البدء التصدي لهما وعدم التأثر بهما، ولكن لم يكن مفر في نهاية الأمر من الأخذ بشيء منهما حتى يكون سلاحا يواجهون به دعاتهما. بل إن البحث النحوي بأسره حول وجهته، إذ لم تعد غاية النحوي فيها البحث عما وراء الظواهر من علل، ولم يعد منهجه في التقنين محصورا في صياغة قواعد تعبر عما في كلام العرب من ظواهر، ومن ثم القياس على ما يطرد في هذا الكلام ويشيع، بل أصبح في وسعه إلحاق أي شيء بأي شيء ما دام ثمة شبه بينهما، وهكذا استطاع المنطق الأرسطي - بصورة خاصة أن يعيد تشكيل الخصائص المنهجية للنحو العربي.

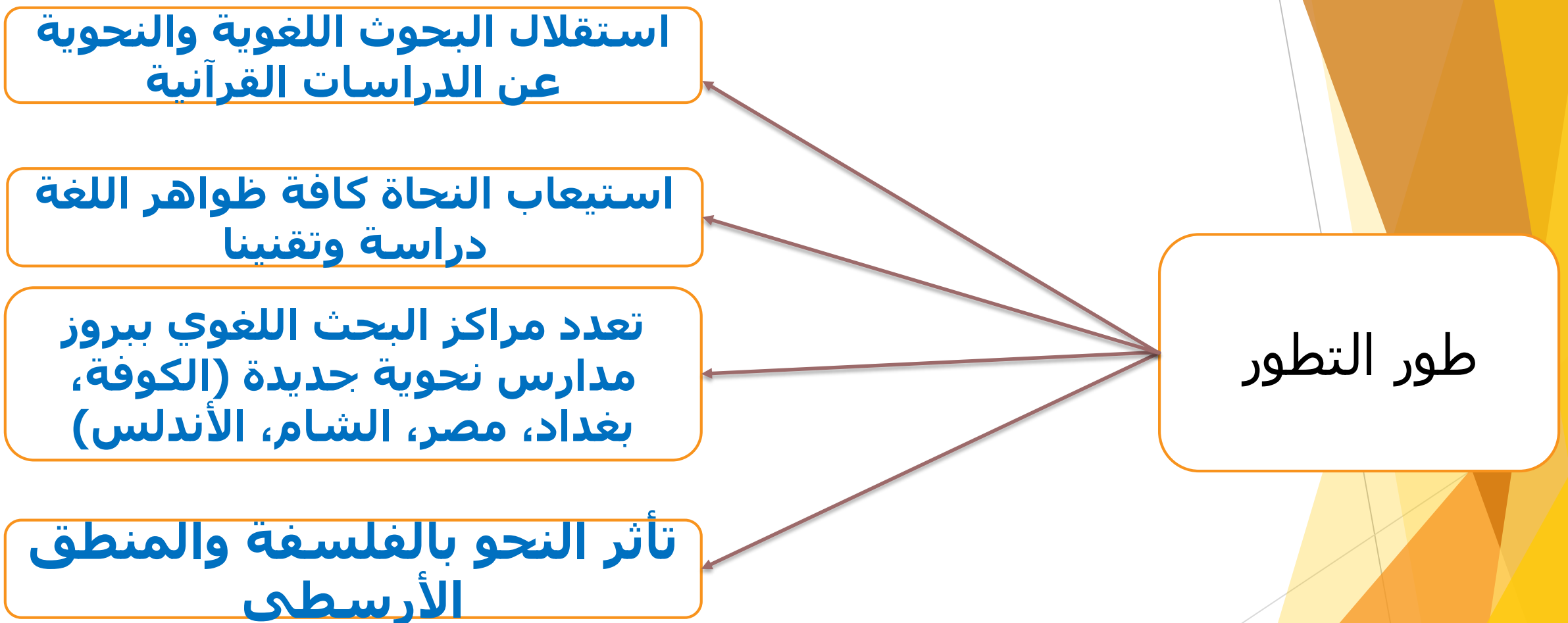
طور التطور
استقلال البحوث اللغوية والنحوية عن الدراسات القرآنية
استيعاب النحاة كافة ظواهر اللغة دراسة وتقنينا
تعدد مراكز البحث اللغوي ببروز مدارس نحوية جديدة (الكوفة، بغداد، مصر، الشام، الأندلس)
تأثر النحو بالفلسفة والمنطق الأرسطي

طور النضج

استمر أكثر من قرنين ونصف القرن، من ابن السراج إلى ابن الأنباري، المتوفى عام 577 هـ، وتعد هذه الفترة أخصب فترات النحو العربي بمقياس ما خلفت في هذا النحو من آثار كمية، وأضافت إليه من إضافات نوعية.

أما الآثار الكمية لهذه الفترة فشيء هائل حقا، إذ استطاع نحاتها أن يقدموا عددا عظيما من المصنفات والمؤلفات تتجاوز كل الآثار العلمية للفترات السابقة عليها واللاحقة لها جميعا، وتتسم هذه المصنفات والمؤلفات بسمتين أساسيتين:

السمة الأولى: التفاوت الكمي، فمنها ما يقع في بضع صفحات ومنها ما يقع في عدد من المجلدات، ومنها ما يتوسط بين بين.

السمة الثانية: التنوع الموضوعي، فإن منها ما يهدف إلى بيان مسألة أو شرح موضوع أو عرض رأي أو الاستدلال على فكرة، ومنها ما يقصد إلى استعراض القواعد ملخصة مبسوطة، مجردة من الأدلة أو مستندة إليها، كما أن منها ما يلجأ إلى شرح آثار نحوية سابقة لنحاة سابقين أو - في أحيان جد قليلة - معاصرين.

طور النضج

إنتاج كمي كبير في المصنفات النحوية

التفاوت في حجم المصنفات

التنوع الموضوعي: بيان مسألة أو شرح موضوع أو عرض رأي أو الاستدلال على فكرة،، استعراض القواعد ملخصة مبسوطة، شرح آثار نحوية سابقة لنحاة سابقين

طور التجمد

الذي امتد إلى نحو خمسين عاما مضت، واستمر بذلك أقل قليلا من ثمانية قرون، يتصف التيار العام للبحوث النحوية بالتبعية ويتسم بالاجترار، فليس ثمة إضافة حقيقية إلى ما خلفته الأطوار السابقة، سواء في الناحية المنهجية أو في المجالات الموضوعية، ولعل أدق وصف يمكن أن توصف به هذه الفترة كلها أنها فترة جمود، عكف فيها النحويون على اجترار ما قدمه الأسلاف من أفكار وآراء واتجاهات وقضايا ومواقف أيضا. غير أنه ثمة استثناءان يمكن أن يعدا من قبيل إثبات هذه القاعدة العامة ولا ينفيانها، أولهما ثورة ابن مضاء، المتوفى عام 592 هـ، تلك الثورة التي كان يمكن أن تفتح الباب لمناقشة الأسس المنهجية للتراث النحوي، وبصفة خاصة ما يتصل بدور العلة بالنسبة للقاعدة في هذا التراث. أما الاستثناء الثاني فمحاولة النحاة المصريين وضع معجم نحوي، يتناول بالدرس والتحليل الأدوات المستعملة في اللغة ووظائفها النحوية، والمصطلحات المستخدمة في النحو ودلالتها الوظيفية، وبعض التراكيب الشائعة وخصائصها السياقية، والجمل المشكلة وتفسيراتها الأسلوبية وتخريجاتها الإعرابية، وهي محاولة بلغت ذروتها بابن هشام، المتوفى سنة 761 هـ، في كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، وختمت - فيما نحسب - بالسيوطي، المتوفى سنة 911 هـ، في كتابه "الأشباه والنظائر في النحو".

ولعل مرد ما لاقته هذه المحاولة من توقف يعود إلى ما يمكن الاصطلاح عليه "روح العصر"، أي تلك الحالة النفسية والعقلية التي تتمرس بالتبعية وتألف التقليد، فلا تكاد ترى قيمة في أي عمل إلا بقدر ما يردد من أفكار مألوفة أو اتجاهات معروفة، ومن ثم يفقد كل جديد قيمته إذا لم يكن له في التراث جذور.

طور التجمد

اتصاف التيار العام للبحوث النحوية بالتبعية ويتسم بالاجترار

اعتكاف النحاة على اجترار ما قدمه الأسلاف من أفكار وآراء واتجاهات وقضايا ومواقف

الارتباط الكلي بالتراث وتقليده: فقدان كل جديد قيمته إذا لم يكن له في التراث جذور

طور التحرك

الذي يمكن أن يعد آخر أطوار النحو العربي، والذي يزيد عمره فيما نحسب عن أكثر من نصف قرن – بدأت محاولات مختلفة الأشكال والاتجاهات لإعادة النظر في التراث النحوي، وهي محاولات نشأت جميعا في إطار البحث النحوي في مصر، بحيث تستطيع أن تجعلها سمة من سماته وإضافة من إضافاته.

من هذه المحاولات الاتجاه الذي جعل غايته تصفية القواعد النحوية مما يشوبها في هذا التراث من شوائب أدت، وتؤدي، إلى صعوبة الإلمام بالنحو العربي من ناحية، وعدم الإفادة الكاملة منه في تعلم اللغة والسيطرة عليها والتمكن منها من ناحية أخرى.

سعيد العيماري- مركز الجديدة

طور التحرك

محاولات لإعادة النظر في التراث النحوي

بروز تيار تيسير النحو في مصر: تصفية القواعد النحوية مما يشوبها في هذا التراث من شوائب أدت، وتؤدي، إلى صعوبة الإلمام بالنحو العربي.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

استوت أبواب علم النحو ووضعت له مصطلحاته ومباحثه مع النحاة الأوائل بالبصرة، وبرزت اتجاهات تباينت في تعليلها النحوي فكان أن استقل كل اتجاه بمدرسة اختصت بسمات ميزتها عن غيرها، ومن أبرز هذه المدارس:

المدرسة البصرية

- أبو الأسود الدؤلي
- عمرو بن العلاء
- الخليل الفراهيدي.
- سيبويه
- الأخفش الأوسط
- أبو علي الفارسي
- المازني
- المبرد
- الزجاج
- ابن السراج
- السيرافي

المدرسة الكوفية

- الكسائي
- الفراء
- ثعلب
- ابن السّكّيت

المدرسة البغدادية

- ابن كيسان
- الزجاجي
- ابن جني
- ابن الشجري
- ابن الأنباري
- العكبري
- ابن يعيش
- الأستربادي
- الزمخشري

المدرسة الأندلسية

- ابن مضاء
- ابن عصفور
- ابن مالك
- أبو حيان

المدرسة المصرية

- ابن أم قاسم
- ابن الحاجب
- ابن هشام

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

تميزت المدارس النحوية المختلفة بتوجهها التقعيدي للغة العربية وفق مناهج علمية تباينت وأثمرت اختلافا بين مدرسة وأخرى، لكنها مثلت مجتمعة ملمحا من ملامح تطور الفكر النحوي العربي ومظهرا للمعرفة العربية؛ فوضع البصريون الأصول والمنطلقات، ووسع الكوفيون المدارك وقدموا رؤى خاصة في التقعيد، ووفق البغداديون بين البصرة والكوفة، واعتمدت المدرسة الأندلسية نهج التيسير، وسعى المصريون إلى التلخيص والتدقيق

المدرسة البصرية

- وضع قواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب الفصحاء.
- اعتماد القياس والتعليل المنطقي للقواعد.
- الاهتمام بأصول النحو: السماع، الإجماع، القياس، الاستصحاب.

المدرسة الكوفية

- التوسع في الرواية إلى الفصيح والشاذ من كلام العرب.
- وضع فروع للأصول والقول بالأوجه الإعرابية - ربط الإعراب بالمعنى.
- تعليل الظواهر بما يناسبها لا الاستناد إلى التعليل المنطقي.

المدرسة البغدادية

- التوفيق والجمع دون تعصب لرأي بصري أو كوفي.
- استعمال الاختيار والترجيح اعتمادا على قوة الحجة.
- الانفتاح على البصريين والكوفيين معا.

المدرسة الأندلسية

-ارتكزت على المذهب البصري، وانفتحت على المذاهب الأخرى.
-سعت إلى الاختصار والتبسيط.
-سهلت النحو للمبتدئين.
دعا بعض أعلامها إلى تبسيط النحو وإلغاء العامل.

المدرسة المصرية

- اعتمدت منهج التجميع والتلخيص لترسيخ القواعد النحوية.
- قدمت شروحا للمتون النحوية وعلقت عليها.
- اهتمت بالخلافات بين المذاهب النحوية ورجحت بينها.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

المدرسة البصرية

- وضع قواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب الفصحاء.
- اعتماد القياس والتعليل المنطقي للقواعد.
- الاهتمام بأصول النحو: السماع، الإجماع، القياس، الاستصحاب.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

المدرسة الكوفية

- التوسع في الرواية إلى الفصيح والشاذ من كلام العرب.
- وضع فروع للأصول والقول بالأوجه الإعرابية
- ربط الإعراب بالمعنى.
- تعليل الظواهر بما يناسبها لا الاستناد إلى التعليل المنطقي.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

المدرسة البغدادية

- التوفيق والجمع دون تعصب لرأي بصري أو كوفي.
- استعمال الاختيار والترجيح اعتمادا على قوة الحجة.
- الانفتاح على البصريين والكوفيين معا.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

المدرسة الأندلسية

-ارتكزت على المذهب البصري، وانفتحت على المذاهب الأخرى.

-سعت إلى الاختصار والتبسيط.

-سهلت النحو للمبتدئين.

دعا بعض أعلامها إلى تبسيط النحو وإلغاء العامل.

المدارس النحوية والتقعيد لبنيات اللغة العربية

المدرسة المصرية

- اعتمدت منهج التجميع والتلخيص لترسيخ القواعد النحوية.
- قدمت شروحا للمتون النحوية وعلقت عليها.
- اهتمت بالخلافات بين المذاهب النحوية ورجحت بينها.